عود على بدء

الشعر العامي اللبناني

بقلم مارون عبود

يبتغي مني الدكتور الاديب سهيل ادريس ، رئيس تحرير مجلة الآداب ، ان اكتب تاريخ امة في ثلاث مقالات . سألني من جهة لماذا لم اطل الكلام عن رشيد نخله ، ثم رأيته من جهة اخرى يحذف من هنا ، ويبتر من هناك ، هرباً من التطويل... تعود قدماء القرية ان يقطعوا مقداراً ما من ذنب الهر ليسمن . فهل البحث الأدبي يسمن ويكتنز اذا اقتطع شيء منه ؟...

ويريد الدكتور نقولا زياده، وهو بحاثة طريف الاسلوب، ان نبحث العلاقة بين الزجل اللبناني والغناء السرياني الديني . فلدكتورنا العلامة اقول : ان الزجالين اللبنانيين الاولين موارنة مستعربون لم يتمكنوا ، بادىء ذي بدء، من العربية وقريضها، تعود هؤلاء سماع ميامر مار افرام ومار يعقوب في كنائسهم، فأخذوا ينظمون الشعر عربياً عامياً ، على تلك الاوزان السريانية التي عرفوها وفهموها وترنموا بها صباحاً ومساء وليلاً في كنائسهم ، فانطبعوا عليها ، ومن هنا جاءت العلاقة بين الشعرين، من حيث اللحن والنغم، ومن حيث المعاني والافكار والصور . واذا اردنا التعمق اكثر وُعدنا الى الزجل المرويّ عن الخوري نعمة الله القدوم الكفري الجبيلي رأينا في زجلياته التي يتناقلها الرواة عندنا حتى اليوم، ثقافة دينية انجيلية توراتية، عميقة الصور حافلة بالرموز والتلميحات . شكا ، رحمه الله ، في هذه الزجليات ، من سياسة الاكليروس في زمانه ، وخصوصاً الرهبان الموارنة الذين خاضوها ثورة محلية طائفية ، فألقوا عنهم نير بطركهم ، وانتدبت رومة القاصد الرسولي نوديفيكوس لينظم شؤونهم ، فانفتح باب مغلق لشاعرية ذلك الكاهن الماروني العتيق فنظم زجليته الشهيرة يصف فيها تلك (الحركة) . قال يخاطب القاصد ، واللحن سرياني :

لوديفيكوس يا قاصد الفاتيكان ارسلوك للشرق حتى تدبر الرهبان

ثم مضى يصف زعماء الرهبانية المتآمرين واحداً واحداً .

واذا رجعنا قرنين الى الوراء — قبل المطران جرمانوس فرحات — رأينا الصلوات البيعة السريانية من خدمة قداس وصلوات وزياحات وجنازات قد عربت ازجالاً ذات الحان سريانية . فالميامر التي تعرف عندهم حتى الآن بالافراميات — نسبة الى القديس افرام — لا تزال حتى الساعة تحمل اثراً واضحاً من تلك الرطانة، رغم تنقيح المطرانين الشهالي والدبس . وهذا نموذج عتيق جداً من قولهم في وصف الهالكين الذين يعذبون في جهنم ، وقاني الله والدكتورين العزيزين شر نارها الدائمة :

والنار تشغر من الفوقاني للتحتاني
وهم مشقوعين مثل الحجارة عالحيطاني

وفي (إفرامية) اخرى يصفون وصول قديسهم مار مارون الى السماء :

والأب مارون ، ملاّ قديس ، وآيش بتقول فيه
حمل عصاتو ، وقام التنقيس ، ما شلله عليه
طلع عالسما ، وجات الملايكي ، كلا تلاقيه
ومن فرحتهم ، بقوا يبرعطوا ، كعجول نيسان

أرأيت هذه الصور الشعرية الساذجة ؟؟ هذا ما كان في طور استعراب الموارنة الاولين . وقد يستغرب القاريء ان ذكرت له كل شيء من اناشيدهم — وهذا لا يستطاع — ولهذا اكتفي بالقليل القليل .

قالوا في احد اناشيد خدمة القداس :

فلنقف كلنا بسويه . . . . . .
ونسبح رب البريه تا يغفر لنا الخطيه

ثم صارت في تعريب المطران فرحات والشهالي هكذا :

فلنقف كلنا امام الاله الذي كلمنا من علاه
ونستعطف جوده ورضاه باصوات التسبيح والصلاه
ربنا اشفق على شعبك وارحم اولاد رعيتك .الخ.

واذا رجعت الى مخطوطه كرشونية في مكتبتي كلها اناشيد دينية من (السواغيت) اي الأناشيد ، وهي معربة عن السريانية باللحن والوزن ، رأيت فيها من هذا الطراز اشياء لا تحصى ، وها انا انقل للقاريء ما يلي ليقابله بما سبق ذكره . قالوا في انشودة — سوغيت — عشية عيد الانبا مارون :

لنمدح الآن . ابانا مارون . المتوشح . عزاً نصرا

الى ان يقول :

انفق البار . حياته كلها ، بكوخ يعاني . برداً وحرا

ارضى ربه . بحسن سيرته . وأتقن حكماً . يعلو قدرا
اسمع ربنـــا ، ابتهالاتنـا وهبنـا معه . بفيضك اجرا
نعطى معه . ربنا حظـــا . في عرش ملكك . ونوهب فخرا

وأظن ان هذه الزجليات ومـــا فيها من ركاكة هي التي دفعت احمد فارس الشدياق الماروني المسلم ، على سعير رجـــال الدين الشرقيين بالركاكة . يقرأ ذلك من يحب الطبخ الدسم ... حين يطالع كتابه الفارياق . اما اذا كان من محبي «الصندوش» فعليه ان يطالع كتابي «صقر لبنان» ولا نزال نسمع الموارنة حتى اليوم ينشدون في قداس عيد مار مارون :

لك شرف مفرد . كبدر الضياء ولك اسم يزهـــو . كالثريّا
لك اسم في الشرق مسمّيـــا مار مارون فخر سوريّا

وبعد ، فاظن ان صديقي الدكتور زياده قد اقتنع بان هناك علاقة وثيقة بين الزجل والسريانية ، ولعل هذا هو احد الاسباب التي جعلت للزجـــل هذا الوقع في قلوب اللبنانيين القدامى ، لانهم الفوه جداً في بيعهم ، ونشأوا وشبوا وشاخوا عليه ، ثم لحق بهم الى القبر والى ما بعد القبر ..

ويطيب لي في هذا المجال ان ادون (قرّادية) يظهر فيها الاثر الديني كل الظهور ، وهي لشاعر مجهول من بلادي . يستدل على ذلك من لهجتها ، ومن صورها ومن افكارها ومعانيها ، واخيراً من التسكين . قال ذلك الشاعر المجهول يعاتب محبوبته :

يا ام الوربي عبّـــاسي تايه عن اسمـــك ناسي
هـــواك دبّ براسي وعطّل شغالي عليّي
عطّل شغالي وعمالي وفيكي تاهت فكاري
حلوي لمـــن تنداري تزيدي الجروحات كيّي
تزيدي الجروحات حريق عاملتيها كام تريق (اي مرة)
قامي رفيعا وخصر رقيق بيطوي طيّي عـــا طي
جرحك بالهوى ما يطيب دايم ينضـح داميّه (اي دم)
دايم ينضـــح ومعذّر يا ام السنجـق والزنار
لاعمل في بيتـك مزار وصوم وصلي الفرضيّه
يا وصوم وصلي صلاتي وبركـع وبفتح باطي
وان كان المعبد واطي منوطي الدرجـة شوّي
منوطيهـــا وبتوطـا يا ام الوربي والفوطـــا
بس تضلي مبسوطـــا منعمل زيّاح ورديّي
منعمل زيّاح وقداس وان كان موجود عندك ناس
منوقف عالباب حرّاس يحرسوا طريـــق العليّي
يحرسوا طريـق السرايا وكلامك كلـــو مرايا

وبتقري العشر وصـايا يا بنـــت المغنّـــي

فكأنني اسمع دق الصنوج وقرع النواقيس في ازياح ، هذا الشاعر ، بل اخالني اراه راكعاً ساجداً ملبياً كابي نواس . . ثم جاراهم في هـذا المضمار غيرهم فاتجه الزجل اتجاهات لا تحصى حتى وصـل الى ما وصل اليـه الآن . وبلغ هذا الشعر مع رشيد نخله القمة الفنية العليا ، فكان ميسترال لبنان حقاً ، فهو رافـع العامية الى مرتبة الفصحى البليغة ، وقد ضاهى اصحاب الموشحات في تنويع هذا الشعر .

ان رشيد نخله شاعر فصيح اولاً ، وقد قال الشعر في تعبير صحيح ، ولكنه عمل بقول المثل المشهور : الاول في ضيعتي ولا الثاني في روميه . وهكذا كان .

كثيراً ما اسمع الناس يعزون الى الرشيد هذين البيتين :

قلبي وعيني ضعاف من غيرشي وبكـل يوم بيفتحو ورشي
العين تهوى كلما شافت والقلب لاحقها على الطحشي

قد كنت ظننت ان الرشيد اخذهما من قول المرحوم دعبل ، واخرجهما باسلوبه العامر باللون والتعبير المحليين ، فزادهما حياة كما يظهر للمتأمل حين يعارضهما بقول الخزاعي :

لا تأخـذ بظلامتي احـــداً قلـبي وطرفي في دمي اشتركا

بيد انني رجعت الى كتاب (معنّى رشيد نخله) مفتشاً عنهما فلم اجدهما .

ان الرشيد خير من حفل زجله بالصور والمعاني والالوان ، وقد تجد كثيراً من هذه الصور في الشعر الفصيح ، لان ابا امين شاعر فصيح واسع الاطلاع وقف حياته على السياسة والشعر . واني اكتفي هنا ببيتين أؤيد بهما ما اقول . قال رحمه الله :

لمـــا الشمس عتقت في سماها وشاف ربي الدني بتظلم بلاها
خلق محبوبتي تتنوب عنهـا وهبها مثل ما بدّا وعطاهـا

ففي الشطر الاخير يلتقي الرشيد بالمطران جرمانوس فرحات القائل في العذراء مريم :

خلقت درة لا عيب فيها كأنك مثلما شئت خلقت

ولست ادري اي شاعر زجلي قال هذا الشطر الذي ذهب موجهاً الكلام الى حبيبته :

طلي قبال القمر تانحرنقوا شويه

وفي كل حال يظل رشيد نخله امام الزجالين المتبوع . فمنهم من اتبعه من بعيد ، ومنهم من اتبعه من قريب كخليفة شحرور الوادي ووليم صعب ، وسيبدو هذا للقارىء في فصل آتٍ وهو الاخير .

مارون عبود